﴿*إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨﴾ [المعارج: 19 - 28]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

من رحمة الله تعالى بعبادِهِ أنْ بيّن لهم أسبابَ الشَّر ليجتنبوهُ، وأسبابَ الخيْرِ ليَلْتَزِموهُ

لمّا ذَكر الله تعالى أنَّ عقوبةَ المُجْرِم جهنَّمُ الّتي تَتَلظّى، وأنّها مُعدَّةٌ لِمَنْ أدبَرَ وتَوَلّى وجمع فأوعَى؛ ذَكر بإثْرِ ذلك هنا الدَّوافعَ الّتي تسبَّبت في ذلك العذابِ للمُجْرِم، وأنَّها عدمُ نَجاحِه في ابتلاءٍ رُكِّب في جِبلّته يومَ أنْ خلقَهُ الله تعالى؛ هو أنَّه مِثْلُ كُلِّ بَني الإنسان؛ خُلِق على صفةِ الهَلَع، بحيث إذا نزَلَ به الضُّرُّ تملَّكه الجزَعُ؛ فتبرّم به وتضجّر، وإذا حلّ به الخيرُ تملّكه الجشَعُ؛ فمنعَ النّاس حقوقَهُم.

ثُمَّ استثنى السّياق الكريم مِن الاستسلامِ لتِلْكَ الخَطايا مَن وُفِّقوا في الابتلاء، ونجحوا في تهذيب أنفُسِهم بالإيمان، فتحرَّروا من صِفةِ الهَلَعِ، وتَطهّروا من مَظْهَرَيْهِ: الجزع والجشع، وتحقَّق لَهُم ذلك ببركةِ الإيمان والصَّلاة، والتَّصديق بيوم الدّين، والإشفاقِ مِن غضَبِ الرَّبِّ الجليلِ ﷻ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَلُوعًا﴾: (هلع) تدور اشتقاقاتُها على السُّرعةِ والحِدَّة[1]، يُقال: رَجُل هُلَعة - كهُمَزة -: يَهْلَع، ويَجْزَع، ويستَجيبُ سريعًا. وهَلِعَ كتعِب -: جاعَ، والهلعُ: فراغ الجوف من مَصْدَرِ القوَّة، كالجائع جدًّا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلع).

ومنه: الهَلَع الّذي وصفهُ القرآنُ الكريم: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾، فالجَزَع ضدُّ الصَّبر؛ مِن فراغ القوَّة وعدم الصُّمود، ومنعُ الخير الموجود من فراغ النَّفْس، فيحرِصُ خوفًا من الفقر(1).

2) ﴿جَزُوعًا﴾: (جزع) تدلُّ كثيرٌ مِن تصريفاتِها على الانقطاع(2). ومِنْهُ قولهم: جِزْعُ الوادي - بالكسر -: وسَطُه أو مُنْقَطَعُه؛ حيث يُجْزَع؛ أي: يُقْطع. والجَزَعُ: انقطاع وسطِ الشَّيء مع التئام ظاهرِه أو اتِّصاله، كالخَرَزِ يكونُ مثقوبَ الوسَطِ مُتَّصِلَ الظّاهر، والوادي فارِغ الوسَطِ، لكنَّه يُعْبَر.

وجَزِع - كتَعِبَ -: ضدُّ صَبَر. وحقيقةُ الجَزَع: الخَوَر وعدمُ الصُّمودِ والتَّماسكِ عند المُصيبة، فهذا الخَوَر رِقّةٌ وفراغٌ في الباطن، قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾، ويقول الكفّار وهم في العذابِ يومَ القيامة ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ۝٢١﴾ [إبراهيم: 21](3).

3) ﴿مَنُوعًا﴾: (منع) تدور اشتقاقاتُها على ضدِّ الإعطاء(4)، ومِنْهُ: المَنْعُ؛ وهو تحجيرُ الشَّيء؛ فلا يُخلص إليه، والمنع: حَجْزُ ظاهرِ الشَّيء ما في باطنه شديدًا فلا يكونُ فيه منفَذٌ إلى ما بداخله. وذلك كجدارِ الحِصْنِ المَنيع، وجسم السَّرطان محوط بدرقَةٍ شديدَةٍ ومخالبَ قويَّة لا يوصَلُ إليه ولا إلى باطنه إلّا باحتيالٍ. والنّاقة المانعُ؛ كأنَّ ضَرْعها مُصْمَت لا منافذَ منه. ومنهُ: المنعُ؛ وهو تحجيرُ الشَّيء والحيلولَةُ دونَ الوُصول إليه.

ومَنَعَهُ؛ ضدُّ: أعطاهُ؛ فهو مَنوع، ومَنّاع: أي: ضنينٌ مُمْسِكٌ، قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ [ق: 25]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾؛ أي: لا يُشْرِكُ معه الآخرين بأنْ يُعْطيَهُم مِنَ الخير الّذي أعطاهُ اللّه تعالى(5).

4) ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾: سَأَلَ يَسأَلُ سُؤالًا، والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفةٍ أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المال. فاستدعاءُ المعرفة جوابُه على اللّسان، واليدُ خليفةٌ له بالكتابة، أو الإشارة، واستدعاءُ المال جوابُه على اليد، واللّسانُ خليفةٌ لها إمّا بِوعْدٍ أو

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هلع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جزع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (منع).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جزع).

بِردّ[1]، والمقصودُ بـ (السّائل) في قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ النّوع الثّاني؛ وهوَ استدعاءُ مالٍ وطلبُ عطاءٍ.

5) ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾: (حرم) تدلُّ اشتقاقاتُها على المنع والتَّشديد[2]، والحِرْمُ - بِالكَسْرِ - والحَرامُ: نَقيضُ الحَلالِ، وجَمْعُهُ: حُرُمٌ؛ قالَ الأعشى:

مَهادي النَّهارِ لجاراتِهِمْ *** وباللَّيْلِ هُنَّ عليهمْ حُرُمْ

وَقَدْ حَرُمَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ حُرْمًا وحَرامًا، وحَرُمَ الشَّيءُ - بِالضَّمِّ - حُرْمَةً، وحَرَّمَهُ اللّه عَلَيْهِ، وحَرُمَتِ الصَّلاةُ عَلى المَرْأةِ حُرْمًا وحُرْمًا. والمَحْروم: المَمْنوعُ مِنَ الخَيْرِ. وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾؛ هوَ الَّذي لا يَنْمي لَهُ مالٌ، أو أنَّه المُحارِفُ الَّذي لا يَكادُ يَكْتَسِبُ. وحَريمةُ الرَّبِّ: الَّتي يَمْنَعُها مَنْ شاءَ مِنْ خَلْقِهِ[3].

6) ﴿مُّشْفِقُونَ﴾: (شفق) تدلُّ اشتقاقاتُها على رِقّة في الشَّيء. ومنه قولُكَ: أشفقتُ من الأمر؛ إذا رَقَقْتَ وحاذَرْتَ. ومِنْهُ: الشَّفَقُ مِنَ الثّياب، والشَّفق: الرَّديء من الأشياء، ومِنْهُ الشَّفَقُ: النُّدْأةُ الَّتي تُرى في السَّماءِ عِنْدَ غُروبِ الشَّمْسِ؛ وهيَ الحُمْرَةُ. وسُمّيَتْ بذلكَ لِلَوْنِها ورِقَّتِها[4]. والإشفاقُ الخَوْفُ، ومنه ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون[5].

7) ﴿مَّأْمُونٍ﴾: (أمن) تدلُّ تصريفاتُها على وثاقةٍ في الباطن، كقوَى الحَبْلِ الأمينة القويّة. وآمَنُ المالِ وآمَنُ الدّواء: خالصُه، ولُبُّه المتمكّنُ في باطنِه. ومِن ذَلِكَ الأمْن؛ وهوَ ضِدُّ الخَوْفِ، كأنَّ الآمِنَ تَمَكّن في حِصْن، أو امتلأ قلبُه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنُه، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: 4]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: 16]، وقال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: 11][6]. ومعنى ﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: يُخْشى ويُحذَر[7].

(1) الراغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (سأل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفق).
(5) أبو حيان، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: (شفق).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمن).
(7) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 887.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ صِفاتِ أهلِ الإيمانِ الصّادِقِ

يُبَيِّنُ اللّهُ تَعالى أنَّ الإنسانَ خُلِقَ بِطَبْعٍ عَجولٍ، يَجْزَعُ ويَضْطَرِبُ إذا نَزَلَ به بلاءٌ أو حلَّت به مُصيبَةٌ، ويَبْخَلُ ويُمْسِكُ الخيرَ إذا أصابَهُ الرَّخاءُ واليُسْرُ، إلّا عِبادَهُ المُحافِظينَ عَلى الصَّلاةِ في أوقاتِها، الّذين يُؤدُّونَها بِخُشوعٍ ودَوامٍ، لا يَشْغَلُهُم عَنْها شغلٌ، والّذين يُؤدّونَ حَقَّ اللّهِ تَعالى في أموالِهِمْ مِنَ الزَّكاةِ لِلسّائِلِ عَن المعونَةِ، ولِلمَحْروم المُتَعَفِّفِ عَنِ السُّؤالِ، والّذين يُؤمِنونَ بيَوْمِ الدّينِ ويَسْتَعِدّونَ لَهُ بالعملِ الصَّالِحِ، والّذين يخافونَ عَذابَ رَبِّهِمْ؛ فَإنَّ عَذابَهُ لا ينبغي أن يأمَنَهُ أحَدٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصل قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ عمّا قبلهُ:

المعاني القرآنيّة متواليةٌ، مُتَواثِقَةُ الرّوابط

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ عن قوله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾؛ لأنَّها في موضع التَّعليل لها[1]، فهي منها بمنزلة السَّبب من المسبَّب؛ إذ دعوةُ جهنَّم لهؤلاء كانت بسبَبِ كونهم مِن صنفِ الإنسان الّذي خُلق هلوعًا. ويجوزُ أن يكونَ الفصلُ لِما بينَهما مِنْ شبهِ كمال الاتِّصال، فإنَّ ما تقدَّم يَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا حاصِلُهُ: ما سببُ دعوةِ جهنَّم لهؤلاء؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾؛ لبيانِ أنَّ طبعَ الإنسانِ هوَ مَيْلُهُ إلى الشَّهواتِ التي هي بريدٌ إلى جهنَّمَ. والمعنيانِ متآيلانِ.

وذكر ابنُ عاشور أنّ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ معترضَةٌ بينَ ﴿مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ وبين الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾؛ فهيَ تذييلٌ لجملةِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾؛ تنبيها على خَصْلَة تُخامر نفوس

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 69.

البشَرِ فَتَحْملهم على الحرْص لنيل النّافع، وعلى الاحتفاظِ بهِ خشيةَ نَفادِه لِما فيهم من خُلُقِ الهَلَع. وهذا تذييلُ لومٍ وليس في مساقِه عذرٌ لِمن جمع فأوعى، ولا هوَ تعليلٌ لِفعله[1].

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾، وغرَضُ تَوكيد الخبَرِ في الجملة:

﴿إِنَّ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، وهي تَدْعَمُ خبَرَ خَلْق الإنسانِ هلوعًا، و"موقِعُ حرفِ التَّوكيد ما تتضَمَّنُه الجُملة من التَّعجيب من هذه الخَصلة البَشريَّة، فالتّأكيد لِمجرَّد الاهتمام بالخبر، ولفْتِ الأنظار إليه، والتَّعريض بالحذَرِ منه"[2]؛ إذْ قد مَنَحَ الخالقُ العظيمُ ﷻ الإنسانَ القدرةَ على مقاومة الهَلَعِ والجَزَع والحِرْص؛ فأمْكَنَهُ مِن خَصيصة الاختيارِ، وهيّأ له حياةَ الابتلاءِ والاختبارِ.

في خَلْقِ الإنسان هَلوعًا مع مَنحِهِ القُدرةَ على مُقاومَتِه تهيئةٌ لابْتلائِه في الدّنيا

معنى (أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ لتعريف الجِنْس والاستغراق، والمرادُ: كُلُّ إنسانٍ[3]؛ وذلك ليَصِحَّ استثناءُ المصلّين منه[4]؛ إذ الاستثناءُ معيارُ العموم. فكلُّ إنسان خُلِق هلوعا، ثُمَّ وُفِّق المؤمنُ إلى الثَّبات على الحقِّ، وخُذِل الكافر إلى الانْتِكاس إلى المعاصي، فعلى الإنسانِ "أن يُمانِع نفسَه إذا نازَعَتْه نحوَها، ويُحارب شيطانَه عند تزيينِه المعصيةَ، فيَسْتَحِقّ مِنَ الله مثوبةً وجنَّةً"[5].

توفيقُ الله تعالى المؤمنين للثَّبات على الحقِّ، وخُذلانُه الكُفّار إلى الانتكاسِ

ويجوزُ[6] أن تكونَ (أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للعهدِ، فالإنسان الذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 602.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 538.
(5) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 21.
(6) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 266.

خُلِق هَلوعًا هو السّائل المستهزئُ بالعذاب، السّابق ذِكْرُه في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، الّذي ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، وإلّا فمِن جنس الإنسانِ مَن ليس هلوعًا، وليس ممّن ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون، والمؤمنون الصّالحون، الذين استُثنوا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، فيكون الاستثناءُ على هذا منقطعًا.

وجاء الحكمُ على الإنسان مُطْلَقًا على التَّغليب؛ لأنَّ أكثر النّاس هُم هذا الإنسان الهلوع، كما يقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [يوسف: 103][1].

دلالةُ التَّعبير بفعل الخَلْقِ ﴿خُلِقَ﴾، ونكتةُ بِنائِه لغيرِ فاعله:

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: جُبِل وطُبع على حُبِّ ما يُتلذَّذ به، والقيام بِطلبه، وبُغض ما يُتألَّم به، والهَرَبِ عنه[2]. وفي التَّعبير بمُفْرَدَة الخَلْقِ في قوله تعالى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ دلالةٌ على تمكُّن هذا الطَّبع وتلك الغريزة من نَفْسِ الإنسانِ؛ مِمّا يميل به نحوَ الهلَعِ والجَزَعِ والمَنْعِ إنْ كانَ كافِرًا، وإلى ضدّهِ إنْ كان مِنَ المُصَلّين المُسْتَثْنَيْن.

للنَّجاة طريقٌ ينبغي أن يسلُكَهُ الإنسانُ، وللهلاك طُرُقٌ يجِبُ أن يتَجَنَّبها

وفي بناءِ الفِعْلِ ﴿خُلِقَ﴾ لِغير فاعله الحقيقيِّ – وهو اللّه تعالى –؛ تنزيهًا له ﷻ عن نِسْبَةِ ما يُتوهَّمُ أنَّهُ شرٌّ إليه عزَّ وعلا، وفي ذلك يَحْصُلُ الاتِّساق مع قولهِ ﷺ: "الخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ"[3].

ومن حِكَم خَلْقِ الإنسانِ هلوعًا أنَّ الدُّنيا دارُ ابتلاءٍ، ومِن مُقْتَضياتِ ذلك جَعْل الإنسانِ على ذلك الحالِ؛ ليُقاوم طبعَه ويهذِّب نفسَه، ويروّض روحَه على معيارِ الشَّرع الإلهيِّ الحنيف؛ فيفوز بالرِّضوان والجنان، وينجو من عذابِ النّيران.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1173.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.
(3) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (771).

فـ "إنَّ الإنسان مكلّف بأنْ يأخُذ طريقَ الخير، ويتَّجه إلى جانب الأمن والسَّلامة من عذاب الله تعالى؛ لأنَّه لا يدري ما قضاءُ الله فيه ومشيئتُه له؟ ولكنَّ الّذي يدريه ويقطَعُ به هو أنَّ للنَّجاة طريقا ينبغي أن يسلُكَه، وللهلاك طُرُقا يجِبُ أن يتَجَنَّبها. إنَّه يفرّق حتما بين النّور والظّلام. وفي النّور الهُدى والسَّلامة، ومع الظَّلام الضَّلالُ والضّياع، فإذا آثرَ الظّلام على النّور والضّلال على الهدى، ولم يتحَرَّك بإرادَتِه للخَلاص ممّا هو فيه؛ فقَدْ لَزِمَتْهُ الحُجَّة وحَقَّ عليه العقابُ"[1].

بلاغَةُ الكناية في قوله: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾:

وجـوبُ تَـطْـهيرِ العَبْدِ نفسَهُ مِن أدرانِها

في التَّعبير بفعل الخَلْق ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ كناية عن تأصُّل هذا الطَّبع في الإنسان، وتمكُّنِه منه تمكُّنًا فِطريًّا، يقتضي منه العملَ على تهذيبِهِ وتقويمه؛ ليصير في زُمرةِ الأتقياءِ الأزكياءِ الأنقياءِ، ويُصْبِح أهلًا لمجالسةِ الأكابِرِ في دار السَّعادة.

دلالَةُ التَّعبير بالهَلَع، ولطيفةُ صَوْغِهِ على (فَعول):

الـهـلَـعُ قـلَّـةُ إمساكِ النَّفس عـنـد اعـتـراء مـا يُـحـزنـها أو يَسُرُّها، أو عِنْدَ تـوقُّـعِ ذلـك، والـجـزَعُ من آثارِه

ورد في الهلوع من المعاني: أنَّه البخيل، والحريصُ، والضَّجور، والضَّعيف، وشديدُ الجزَعِ، وأنَّ من صفاته ما قاله الله تعالى فيه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾، فإذا مسّه الخير لم يَشكُر، وإذا مسَّه الشَّرُّ لم يَصبِر، وإذا استغنى منَع حقَّ الله تعالى وشحَّ، وإذا افتقر سألَ وألحّ[2]؛ فالهَلَعُ جزعٌ شديدٌ واضْطِرابٌ يَعْتَري الإنسانَ عندَ المَخاوِفِ وعندَ المَطامِع[3]، ونحوُه قوله ﷺ: "شَرُّ ما في الرَّجُلِ شُحٌّ هالِعٌ، وجُبْنٌ خالِعٌ"[4].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1174.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 94.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 368.
(4) رواه أحمد في مسنده، برقم: (8010)، وأبو داود في سننه، برقم: (2511)، وهو حديثٌ صحيح، كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، برقم: (560).

ولابْنِ عاشورٍ في تفسيرِ الهَلع نظَرٌ آخرُ؛ فيقول: "والهلعُ لفظٌ غامِضٌ من غوامض اللُّغة، قد تساءل العلماءُ عنه، والّذي استخلصتُه مِن تتَبُّع استعمالات كلمةِ الهَلَع: أنّ الهلعَ: قلّةُ إمساكِ النَّفس عند اعتراءِ ما يُحزِنُها أو ما يسُرّها، أو عند توقُّع ذلك والإشفاقُ منه. وأمّا الجزعُ؛ فمِن آثار الهلَع. وقَد فَسَّر بعضُ أهل اللُّغة الهلعَ بالشَّره، وبعضُهم بالضَّجر، وبعضهم بالشُّحِّ، وبعضُهم بالجوع، وبعضُهم بالجُبْن عند اللِّقاء. وما ذكرناهُ في ضَبْطِه يجمَعُ هذه المعانيَ ويُريك أنَّها آثارٌ لصِفَةِ الهلَع"[1].

و"الإنسانُ وإن كان مطبوعًا على هذه الأخلاق الذَّميمة من البُخْل، والإقتار، والعجلَةِ، وجُبِل عليها؛ فقد مَلَك رياضةَ نفسِه، ويُمْكِنُه أن يستخرجها من تلك الطِّباع الذَّميمة إلى أضدادها من الأخلاق الحميدة، فلَزِمَهُ القيامُ بذلك؛ ألا ترى أنَّه يتهيَّأ له أن يقوم برياضةِ الدّوابِّ والسِّباع، فكذلك الإنسانُ إذا قام برياضةِ نفسِه؛ أمكنَهُ أن يستخرجَها عن خُلُقِها؛ فتصير مطيعَةً له، ويخِفّ عليها بَذْلُ ما يَطْلُب منها، ويَسْهُل عليها تحمُّلُ ما كان يَشْتَدُّ عليها[2].

والهلَع: صفةٌ غيرُ محمودةٍ، فوَصْف الإنسانِ هنا بها لَوْمٌ عليه في تقصيرِه عن التَّخلُّق بِدفع آثارها؛ ولذلك ذُيِّل به قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ على كلا مَعْنَيَيْهِ"[3].

وفي التَّعبير بمفردةِ (الهلع) على اضطرابِ الإنسانِ وضَعْفِه مطابقةٌ دقيقةٌ بين اللَّفظ ومعناهُ المقصودِ منه؛ إذْ إنّ دفْق هواءِ الجَوْف عبْرَ صوتِ الهاء الضَّعيفة، ثُمَّ الإتيان بصوت العينِ مِن وسَطِ الحلق في لفظِ ﴿هَلُوعًا﴾ يحكي ضَعْفَ ذلك الإنسانِ، ويترجم خُلوَّ نفسِه من أسباب الثَّبات، وفي ذلك تنبيهٌ شديدٌ له، يَفْزَعُ عقلَهُ ونفسَهُ ليعمَلَ على معالجةِ ذلك الخَلَلِ فينجو مِن تبعاتِه.

وعُبِّر عن هذا الوصفِ بزِنَةِ "فعول" فقال سُبحانَهُ: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾؛ لبيانِ رسوخِ هذا الوصفِ فيه، وتكرُّرِ آثارِه في أفعالِه وتصرُّفاتِه.

علَّة فصلِ قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ عمّا قبله:

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ عن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 167.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 170.

لكمال الاتِّصال بينَهُما؛ إذِ الثّانية تفسيرٌ للأولى وتفصيلٌ يُبيِّن أحَدَ مَظْهَرَي الهَلَع في ذلك الإنسانِ؛ وهو أنَّهُ إذا مسَّه الشَّرُّ جزوعٌ وإذا مسَّه الخيرُ منوعٌ. وهذا رابطٌ وثيقٌ بينَ مَعْنَيَي الجُمْلَتَيْنِ.

تفسيرُ الهَلوعِ وبَيانُ مَظاهِرِهِ

ومِن مُقْتَضياتِ الفَصْلِ اللَّفْظيِّ بين جملةِ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ وما قبلها أنَّ ﴿إِذَا﴾ الأولى ظرفٌ لـ ﴿جَزُوعًا﴾ والثّانية ظرف لـ ﴿مَنُوعًا﴾، وأنَّ الوصفَيْن - على ما اختاره بعض الأجلَّة - صِفتانِ كاشِفَتان لـ ﴿هَلُوعًا﴾ النَّكرةِ، الواقعَةِ حالًا، كما هو الأنسَبُ[1].

نُكْتَةُ التَّقييد بـ ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾:

(إذا) تدلُّ في الأصل على الجَزْم بوقوعِ مدخولها. وفي تقييدِ مسّ الشَّرِّ ذلك الإنسانَ بـ ﴿إِذَا﴾ دلالةٌ على القَطْعِ بذلك الحُكْمِ له، وأنَّ مَسَّ الشَّرِّ إيّاه ممّا لا بُدّ منه؛ لأنَّه في دار ابتلاءٍ. هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ ذلك الإنسانَ جديرٌ بأن يَمسّه الشَّرُّ وأن تحلّ به العقوبة التّقويميَّة كلَّ حين، رحمةً مِن اللّه تعالى به؛ إذْ يتَعَهَّده بالتَّذكير لعلَّه يتوب.

مَسُّ الشَّرِّ الإنسانَ ضرورةُ ابتلاءٍ، ورحمةُ تذكيرٍ

دلالَةُ التَّعبير بالمسّ في جملتي: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾:

في التَّعبير بمفردة المسّ دلالةٌ على كمالِ الرَّحمة الإلهيَّة بالإنسان؛ فإنَّ ابتلاءَهُ بالشَّرّ مجرَّدُ مسّ، والمسُّ في أصلِ اللُّغة كاللَّمس، كاللَّمس، وممّا يَفترقان بِهِ أنَّ المسّ يُقال في كلِّ ما ينال الإنسانَ مِن شرٍّ وأذًى بخلاف اللَّمْسِ، فقد ذُكر في التَّنزيل مسُّ الضّرِّ والضّرّاء والبأساء، والسّوء، والشّرِّ، والعذابِ، والقَرح، واللّغوب، والشّيطان، وطائفُهُ.

المسُّ في غالبِ استعمالاتِ القرآنِ الكريم مقيَّدٌ بالشَّرِّ والمكروهِ

ولم يُذْكَر فيه مسُّ الخيرِ والنَّفع إلّا في مواضِعَ قليلةٍ جدًّا، مِنْها: قوله هنا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 70.

مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾؛ فقد ذُكِر الخيرُ هنا في مقابلةِ الشَّرِّ، ولكنَّ المقامَ مقامُ منعِ الخيرِ لا فِعلُه[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلشَّرُّ﴾، ﴿ٱلۡخَيۡرُ﴾:

وجـوبُ الصَّبر عِنْـد البـلاءِ، والشُّكْـرِ عند الرّخاءِ

(أل) في ﴿ٱلشَّرُّ﴾، و﴿ٱلۡخَيۡرُ﴾ لتعريف الجِنْسِ، ويحتَمِلُ أن يكون للعهد الذِّهْنيِّ - بمعناهُ عِنْدَ البلاغيّينَ -، فيكون في قوّة النَّكرةِ، والمعنى: إذا مسَّهُ شرٌّ، وإذا مسَّهُ خيرٌ. وفي ذلك دلالةٌ على ضعف هذا الإنسانِ، كما أنَّها تدلُّ على تمرُّده وضعفِه؛ إذ يعتريهِ الهَلَعُ بمُطْلَقِ الخَيْرِ والشَّرِّ، فما الظَّنُّ بعظيمِهما؟ فإنَّ حالَهُ معهما حينئذٍ تحْمِلُه على أشدّ الجزع، وعلى أشدِّ المنع، بخلاف المؤمن فإنه متخلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: 23]، وبما وردَ في قول النَّبيِّ ﷺ: "إنْ أصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيْرًا لَهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا لَهُ"[2].

والمرادُ من ﴿ٱلشَّرُّ﴾ و﴿ٱلۡخَيۡرُ﴾: "الفقرُ والغِنى، أو المرضُ والصِّحة، فالمعنى: أنَّه إذا صار فقيرا أو مريضًا؛ أخذ في الجَزَع والشِّكاية، وإذا صار غنيًّا أو صحيحًا؛ أخَذَ في مَنْعِ المَعْروفِ وشحَّ بمالِهِ ولَم يَلْتَفِت إلى النّاس، وكان من الواجبِ عليه أن يكونَ مَشْغولًا بأحوالِ الآخرة، فإذا وقَعَ في مَرَضٍ أو فَقْرٍ وعَلِمَ أنَّه فعل الله تعالى كان راضيًا به؛ لِعلمه أنَّ الله تعالى يفعَلُ ما يشاء ويَحْكُم ما يريد، وإذا وجَدَ المالَ والصِّحَّة صَرفهما إلى طلَبِ السَّعادات الأخرويَّة[3].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ﴾:

استيعابُ أحوالِ الإنسانِ من الخير والشَّرِّ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملةِ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾، وبها تفصيلُ الحالِ

(1) رضا، تفسير المنار: 9/ 453.
(2) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (2999).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 644.

الأخرى لهذا الإنسانِ؛ حيث إنَّ الإنسانَ من حيث الأصلُ يدورُ بينَ حالين: مسِّ الشَّرِّ، وتوفُّر الخير، وهُما متغايران جدًّا، بل متضادّان تضادًا كاملًا. وبين الجملتينِ توسطٌ بينَ الكمالَينِ؛ لاتِّحادهما في الخبريَّةِ، ولما بينَهما مِنَ التَّناسُبِ في اللَّفْظِ والمعنى؛ فأمّا التَّناسُبُ اللَّفْظيُّ فاشتراكُهما في التَّقييد بالظَّرفِ (إذا)، واتِّحاد المسنَدِ فيهما وهو فعلُ (المسِّ)، وما بينَ ﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾ من الجناسِ اللّاحِقِ. وأمّا التَّناسُب المعنويُّ؛ فلما بينَهُما من التَّضادِّ، وهو بذلك يجمَعُ أحوالَ الإنسانِ كُلَّها.

دلالةُ ذِكْرِ الهلَعِ والجزَعِ بَعْدَ مَذمّة الجمع والإيعاء:

ذِكْرُ علَّةِ الجَمْعِ والإيعاء

ذُكر الهَلَعُ جزعًا ومنعًا بعد ذكر مذمَّة الجمع والإيعاء؛ للإيماء إلى علَّةِ ذلكَ؛ فإنَّ الجزعَ يولّدُ حُبَّ الجَمْعِ والتَّحفّظِ والادِّخارِ خشيةَ الفقر، والمنعَ يولّدُ الشُّحَّ وحبَّ المال، فيُسرعُ إلى جَمْعِه وإيعائه دون إنفاقه في سبيل اللّهِ.

بلاغَةُ المُقابلة بين جملتي: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ و ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾:

من لطيفِ المقابلة القرآنيَّة الجمعُ بين المعنى وثمرَةِ مقابِله

في الجمع بين مسّ الشَّرِّ والجَزَعِ، ومسِّ الخَيْر والمنْع: مقابلةٌ بديعَةٌ؛ حيثُ تُجلّي بُعدَ ما بين حالَي الإنسان مِنَ الشَّرِّ والخير، بإزاءِ قُرب ما بين أخلاقِهِ مِن سوءِ الطِّباع، وتضافُر مظاهر الاختلال.

ومن بديع تلك المقابلة وبراعتِها الجمعُ بين (الجزَع) في حال (مسّ الشَّرّ) إيّاه، و(المنع) في حالِ (مسّ الخير) إيّاه، فقوبِل بين المعنى (الجَزَع) وثمرَةِ مقابِله (المنع)، وذلك من لطيفِ المقابلة.

دلالة المنْعِ في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾:

إمساكُ حقِّ الله تعالى موجِبٌ للمَذَمَّة

منعُ الخَير في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ يعني: حَجْبَهُ وإمْساكَه[1]، فـ "إذا كثُر مالُه ونال الغِنى؛ فهو مَنوعٌ لِما في

(1) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (منع).

يدِه بخيلٌ به، لا يُنفِقُه في طاعةِ اللّهِ تعالى، ولا يُؤدّي حقَّ اللّهِ تعالى منه"[1].

وصوغُ (منوع) على زِنَةِ (فعول) في قوله تعالى: ﴿مَنُوعًا﴾؛ دليلٌ على بلوغِ هذا الإنسانِ الهلوع في الحِرْصِ والإمساك مبلغًا متناهيًا في الشِّدَّةِ.

بلاغَةُ الفواصل في قوله: ﴿هَلُوعًا﴾، ﴿جَزُوعًا﴾، ﴿مَنُوعًا﴾:

التَّناسُبُ الصّوتيُّ في القرآن الكريم يتَّسق مع المعاني المبثوثةِ ويَعْضُدُها

توافقُ الفَواصل القرآنيَّة في الجُمَلِ الثَّلاث ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ يُحقِّق لها في الأسماعِ وقْعًا مُتَناغمًا مع وقْعِ معانيها في القُلوب؛ إذْ إنَّ تكريرَ المَدِّ بالواو، المتبوعِ بالعَيْنِ المشبَعة الفتح في الفواصلِ الثَّلاث: ﴿هَلُوعًا﴾، ﴿جَزُوعًا﴾، ﴿مَنُوعًا﴾؛ يَحكي تبدّل حالِ ذلك الإنسان تبدُّلًا متباينَ الأطوارِ قبل تبدُّلِ حركَةِ النُّطق بين الضّمِّ الممدود إلى العينِ المفتوحة فتحًا مشبعًا يتجلّى فيه تقعُّر صوت العَيْنِ الآتي من وسَطِ الحَلْقِ في تناغُمٍ لافِتٍ، تصويرًا لمعاناة نفس الإنسانِ الهَلِعِ الجَزِعِ المنوعِ.

ومن عجيب خصائص التَّركيب هنا اصطفاءُ مُفْرَدة الهلَعِ التي لم تَرِد في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضع، فهيَ مِن فرائدِه. وكذا صَوْغُها على زِنَةِ (فعول)، ومثلُ ذلك لفظتا: ﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾ لم تردا بهذه الصّيغَةِ إلّا في هذا الموضع، بل إن مفردة الجزَعِ لَم تَرِد في غير هذه السّورةِ إلّا في قوله تعالى حكايةً عن الكفّار يوم القيامة أنّهم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ [إبراهيم: 21].

فخصائِصُ الإيقاع الصّوتيِّ في القرآن الكريم تتَّسق مع المعاني المبثوثة، وتَعْضُدُها في تحقيقِ الأغراض المقصودةِ.

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 267.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، ﴿مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ﴾:

مُسارعَةُ الإنسانِ بِطَبْعِه إلى الجَزَعِ لأدنى شرٍّ وإلى المَنْعِ لأدنى خَيْرٍ

في إسنادِ المسِّ إلى كلٍّ مِن الشّرّ والخيْرِ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ الشَّرُّ والخيرُ يوقَعان على الإنسانِ، ولا يَقعان عليه مِن تِلْقائِهما، لكنَّ النَّظم الكريم أسنَد فعلَ المَسِّ إلى كلٍّ منهما تقريرًا لحقيقةِ صَلتِهما بالإنسانِ وأثَرهما فيه، وأنّها مسٌّ مجرَّدٌ، ومعَ ذلك فإنَّ الإنسانَ بطَبْعِهِ يُقابلُ مسَّ الشَّرِّ بالجزعِ ومسَّ الخيرِ بالمَنْعِ.

مَوْقِعُ ﴿هَلُوعًا﴾، و﴿جَزُوعًا﴾، و﴿مَنُوعًا﴾ من التَّركيب:

الهلَع والجزع والمنْعُ تزولُ عَنِ المُؤْمِنِ بالمُعالجَةِ، أو تُستَر فلا تُرَى آثارُها

الأوصافُ الثَّلاثة أحوالٌ، وهي أحوالٌ مقدَّرَة إن أُريد اتِّصافُ الإنسانِ بذلك بالفِعْلِ؛ فإنَّه في حالِ الخَلْق لم يكُن كذلك، وإنَّما حصَل له ذلكَ بعدَ تمامِ عَقْلِه ودُخولِه تحتَ التَّكليف. وأحوالٌ محققَّة إن أُريد اتِّصافُه بمَبْدَأِ هذه الأمورِ الجِبلِّيَّة والطَّبائع الكلِّيَّة المندرجَةِ فيها تلك الصِّفات بالقوّة. ولا مانِعَ عندَ أهلِ الحَقِّ مِن خَلْقِه تعالى الإنسانَ وطَبْعِه سبحانه إيّاه على ذَلِك.

وفي زوالِها خلافٌ، فقال بعضُ أهل العِلْم: إنَّها تَزول بالمُعالجَةِ، ولولاهُ لَم يكن للمَنْعِ منها والنَّهي عنها فائدة، وهيَ ليسَت مِن لوازم الماهيَّة، فاللّهُ تعالى كما خلَقَها؛ يُزيلها. وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّها لا تزولُ، وإنَّما تُستَر ويُمنَع المرءُ عَن آثارها الظّاهرة، حتّى قيل: الطَّبْع في الإنسانِ لا يتغيَّر. وهذا الخلافُ جارٍ في جميع الأمور الطَّبيعيَّة، وقال بعضُ العلماء: الأمورُ التّابعةُ منها لِأَصْل المِزاج لا تتَغَيَّر، والتّابعة لِعَرَضِه قد تتَغَيَّر[1].

والتَّقدير على ذلكَ: هَلوعًا حالَ كونهِ جَزوعًا وقْتَ مَسِّ الشَّرِّ، ومنوعًا وقْتَ مَسِّ الخير. أو أنَّ ﴿جَزُوعًا﴾، و﴿مَنُوعًا﴾ خبران لـ (كانَ) مضمرَةً؛ أي: إذا مسّه الشَّرُّ كان جزوعًا، وإذا مسَّه الخيرُ كان مَنوعًا[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 70.
(2) الحلبي، الدر المصون: 10/ 459.

دلالَةُ التّتميم بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾:

الـحِـرْصُ على نـيـلِ الـنّـافـعِ والاحـتـفـاظ به خشيةَ نَفادِه مِنْ طَبائِعِ البَشَرِ

جاء قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ تذييلًا لجملة ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾؛ تنبيهًا على خَصْلَةٍ تُخامِر نُفوس البشَرِ فتَحْمِلهم على الحِرص لنَيْلِ النّافع، وعلى الاحتفاظ به خشيةَ نفادِه؛ لِما فيهم مِن خُلُق الهَلَع. وهذا تذييلٌ لوْمٍ، وليس في مساقِه عُذرٌ لِمَن جمع فأوعى. والمقصودُ مِنَ التَّذييل هو قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ وأمّا قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فتمهيدٌ وتتميمٌ لحالَيْهِ[1].

نُكْتَةُ تَكرارِ (إذا) في قولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ﴾:

الدُّنيا دار ابتلاءٍ، والإنسانُ يتَقَلَّب فيها بين الخير والشَّرِّ

ومِن لطيف التَّركيب في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ إيثار النَّظم الكريم تكرارَ القَيْدِ بـ (إذا)، وذلك للإيحاء بأنَّ مسّ الشَّرّ والخير إيّاه أمرٌ مقطوعٌ بهِ؛ إذ إنَّ (إذا) تدلُّ في أصلِ وضعِها على القَطْعِ والجزمِ بوقوع مدخولِها. والقَطْعُ بمسِّ الخيرِ والشَّرِّ للإنسانِ واقعٌ لكونِهِ في دار ابتلاءٍ، واللّه تعالى يقول ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]، فما دام الإنسانُ في الدُّنيا؛ لا بُدَّ أن يتقلَّب بين الحالَيْن، وعليه أن يُقابِلَ الأوَّل بالصَّبر، والآخَر بالشُّكر، وإلّا فاتَهُ التَّوفيقُ، وحُرِم عظيمَ الأجر.

دلالةُ ﴿إِلَّا﴾:

مجاهدَةُ النَّفْسِ بالتَّقوى تُقَلِّل هَلَعَها جَزَعًا ومَنْعًا، وتستُرُ آثارَ ذلكَ

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ للاستثناءِ المُنْقَطِع؛ فهي بمعنى (لكنْ)، وإنَّما كان منقطعًا لأنّ المصلّين الموصوفينَ بما ذُكِرَ ليسوا مِن جنس ذلكَ الإنسانِ المخصوصِ المستثنَى منه؛ إذ ليسوا من جنس مَن سأل عن العذاب سؤالَ استهزاءٍ، ولا مِن جنسِ مَنْ إذا مسَّهُ الشّرُّ جزِعَ وإذا مسَّهُ الخيرَ مَنَعَ. أو أنَّ "هذا المعنى - أي: الهلعَ والجزع - فيهم يَقِلُّ؛ لِأنَّهم يُجاهدون بالتَّقوى"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 368.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ "استثناءٌ للموصوفين بالصِّفات المذكورة بعدُ من المَطْبوعينَ على الأحوالِ المذكورة قبلُ؛ لمضادَّة تلك الصِّفات لها؛ مِن حيثُ إنَّها دالَّة على الاستغراقِ في طاعةِ الحقِّ تعالى، والإشفاق على الخَلْق، والإيمان بالجزاء، والخوف من العقوبَة، وكَسْر الشَّهوة، وإيثار الآجلِ على العاجل، وتلك ناشئةٌ من الانهماكِ في حُبّ العاجل، وقصورِ النَّظر عليها"[1].

ويجوزُ أن يكون الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ متَّصِلًا؛ "على أنَّهم لم يَسْتَمِرَّ خَلْقُهم على الهَلَع؛ فإنَّ الأوَّل لمّا كان تعليلًا كان معناهُ خَلقا مستمرًّا على الهلَعِ والجزَعِ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾؛ فإنَّهم لم يستمِرَّ خَلقُهم على ذلك؛ فلا يَرِدُ أنَّ الهلع الّذي في المَهْدِ لَو كان مُرادا لَما صحَّ استثناءُ المُصَلّين؛ لأنَّهم كغيرهم في حالِ الطّفوليَّة"[2].

وعلى ذلك "تكونُ الآياتُ المذكورة فيها أوصافُ المؤمنين المرتَّبُ عليها الثَّواب، مقابِلةً لِما ذُكر من أوصافِ الكافرين المستحَقّ بها العقاب؛ وهو قوله: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، بدليل خَتم الآيات بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾، ويكون قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلى آخره؛ تعليلًا لقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾[3].

وفي هذا الاستثناءِ إيماءٌ إلى أنَّ "النّاس جميعًا قَد جُبِلوا على الجزَعِ عندَ الضّرّاء، وعلى المَنْعِ عندَ السّرّاء إلّا المُصَلّين منهم"[4]، وأنَّهم "ليسوا على تلكَ الصِّفات مِنَ الهلَعِ والجَزَعِ والمَنْعِ، وأنَّهم على صفاتٍ مَحْمودَةٍ وخِلال مَرْضيَّة؛ لأنَّ إيمانَهُم وما تمَسَّكوا به مِنَ التَّوحيد ودينِ الحَقِّ يَزْجُرُهُم عنِ الاتِّصاف بتلك الصِّفات، ويَحْمِلُهُم على الاتِّصاف بصفات الخيرِ"[5].

نُكْتَةُ اخْتِصاصِ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ بالذِّكر من بين صفاتِ المُؤْمِنين:

اختَصّ النَّظْمُ الكريمُ المُصَلّين مِن بينِ صِفاتِ المُؤْمِنين بالذِّكر؛ "لأنَّ المُصَلّين يقومونَ برياضَةِ أنفُسِهِم حتّى يَصْرِفوها عن خِلْقَتِها الّتي أُنْشِئَت عليها، ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ الّذين يقومونَ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/ 246.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 70.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 21.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 100.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 350.

بريـاضَـةِ أنفُسِهم هُم الّذين يقومون على صَلواتِهم دون الّذين يَقومونَ إلى الصَّلاة كُسالى ولا يَدومونَ عليها، ولا يُنْفِقون مِن أموالهم إلّا عَن كراهَة"[1].

المُصَلّون أجْدَرُ النّاس قيامًا على رياضَةِ أنْفُسِهم

والاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ يعني أنَّهم المَوْصوفون بتِلْكَ الأوصافِ؛ فإنَّهم إذا مَسَّهم الخيرُ شَكَروا اللّه، وأنْفَقوا ممّا خَوَّلَهُم اللّه، وإذا مَسَّهم الشَّرّ صَبَروا واحْتَسَبوا[2].

لطيفَةُ التَّعبير عن (المؤْمنين) بـ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾:

صـلاحُ الـصَّـلاة وقبولُها مناطُ صلاحِ الأعمالِ كلِّها وقبولِها

المعنى المباشر لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾: "إلّا الّذين يُطيعون اللّهَ تعالى بأداءِ ما افْتَرَض عليهم من الصَّلاة"[3]. أمّا المقصود بـ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ فهم "المؤمنون، الّذين كانوا مع رسولِ اللّهِ ﷺ، وقيل: عُنيَ به كلُّ مَن صلَّى الخمسَ"[4].

وفي ذلك التَّعبيرِ تنبيهٌ إلى أهمّيَّة الصَّلاة، وتأكيدٌ على سُموِّ مكانتها في الإسلام. ولا يزالُ النَّظْمُ الكريم يلحّ على تأكيدِ تلك الأهمّيَّة، وتقرير سُموِّ تلك المنزلة بِخَتْم أوصاف المؤمنين بذِكْرِ الصَّلاة مرَّة أخرى، والإشادة بمحافظةِ المُصَلّين عَلَيْها.

وبين البَدْءِ بذِكْرِ الصَّلاة والختْم بها؛ يؤسِّس النَّظم الكريمُ لتعليقِ فلاح كلٍّ من العقيدةِ الصَّحيحة، وأنواع العباداتِ، وصُنوف المُعاملاتِ؛ على أهَمِّ ما في الإسلام وهي الصَّلاة، وينوطه بها؛ وذلك دليلُ تبوُّئها من الإسلام - بعد الشَّهادتين - موقعَ الصَّدارة؛ فالصَّلاة هي الّتي تُذكّر باللّهِ ﷻ، وتصلُ العبدَ بِرَبِّه تعالى، وتملأ قلبَه خشيةً منه، وولاءً له[5]، وقد جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ: "أوَّلُ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 206.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 887.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 267.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 267.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1177.

ما يُحاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القيامَةِ يُحاسَبُ بِصَلاتِهِ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وأَنْجَحَ، وإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خابَ وخَسِرَ"[1].

دلالَةُ تَعْديدِ أحوالِ المؤْمِنين عَقِبَ أحوالِ الكافرين:

الـتَّرغـيـبُ في أحـوالِ المؤْمِنين والـتَّرهـيـب مِـن أحوالِ الكافِرينَ

في تعديد أحوالِ المؤمنين الشَّريفة بعدَ تَعْديدِ أحوال الكافرينَ مِنَ الهلَعِ والجزَعِ ومَنْعِ الحقوقِ: تعريضٌ بحقارةِ سُلوك الكافرين، وبيانٌ لبُعد ما بين أحوالِ المؤمنين في تعاطيهِم مع مواقِف الشِّدَّة والرَّخاء، وأحوال الكافرين وتعاطيهِم معَ تلكَ المواقف. وفي ذلك ترغيبٌ في التّعلّق بأحوال المؤمنينَ وتزيينٌ لها، وترهيبٌ مِن التّعلّق بأحوال الكافرينَ وتقبيحٌ لها.

بلاغَةُ الإطنابِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾:

تعديدُ فضائل المؤمنين دليلُ رضوانِ الرَّحمن، وتعديدُ قبائحِ الكافرينَ دليلُ غضبِ الجَبّار الديّان

في اطِّراد ذِكْرِ أحوالِ المؤمنينَ الشَّريفة، وتَعديدِ فَضائلِهم إطنابٌ يتضمَّن الثَّناء عليهم ومَدْحَهُم؛ لأنَّ مقام المدحِ والثَّناء يقتضي الإطنابَ، وبسْطَ الكلام بتَعْديدِ الفضائلِ.

وما أطْيَبَ الثَّناء وما أعلى المَدْحَ، وما أسْعَدَ المَمْدوحينَ إذا كان المادحُ الملكَ الأعلى ﷻ! وما أقسى المَذَمّة، وما أحَطَّ المذمومين إذا كان الذّامّ لهم الملكَ الأعلى ﷻ.

ولا شكّ أنَّ تعديد فضائل المؤمنين دليلُ الرِّضوان الرّحمانيّ المأمول، وتعديدَ مذامّ الكافرين دليلُ الغضَبِ الإلهيِّ المحذور.

عِلَّة تكرار الموصولِ في الجُمَل: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ إلى آخره:

انـفـرادُ المؤْمِنين بـهـذهِ الصِّفاتِ إمّـا أصـلًا وإمّـا كمالًا

في بناء أوصافِ المُصَلّين على تقديمِ ذِكْرِ المَوْصول (الّذين) بينَ يَدَيْ الصِّلات: تهيئةٌ عظيمةٌ، وإرهاصٌ جميل، يبشِّر بعاقِبَتِهم الشَّريفة المذكورة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾.

(1) رواه الترمذي في جامعه، برقم: (413)، والنسائي في سننه الصغرى، برقم: (465)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم: (892).

وفي إعادَةِ الاسْمِ الموصول مع الجُمَلِ المعطوفة مزيدُ عنايَةٍ بأصحابِ تلك الصِّلاتِ[1]. وكلُّ موصولٍ مِن هذه الموصولاتِ هو في ذاتِهِ عُنْصُر تشويقٍ إلى الوقوف على صِلَتِه، ثُمَّ إنَّ تتابُعَها مع صلاتِها عنصرُ تشويقٍ أيضًا، مع ما فيه من تهيئةٍ وإيماء إلى وجْهِ بناءِ الكلام، الّذي طالَت تفاصيلُ مَوْصولاتِه وتَعَلُّقاته، في تلاحُق بديعٍ إلى أن بلغ الكلامُ غاية مأمولِ المؤمنين ﴿فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

وفي تعديدِ تِلْكَ الصِّفات "تنبيهٌ على أنَّ كُلَّ صِلَةٍ مِن هذهِ الصِّلات الثَّمان هي مِن أسباب الكَوْنِ في الجَنّات. وهذه الصِّفات لا يُشارِكُهُم المُشْرِكون في مُعْظَمِها بالمرَّة، وبعضُها قد يتَّصف به المشركون ولكنَّهم لا يراعونه حقَّ مُراعاته باطِّراد، وذلك حِفْظُ الأمانات والعَهْدِ، فالمُشْرِك يَحْفَظُ الأمانةَ والعهد اتِّقاءَ مذمَّة الخيانةِ والغَدْر، ومع أحلافِهِ دونَ أعدائه، والمُشْرِكُ يَشْهَدُ بالصِّدق إذا لَم يكن له هوًى في الكذبِ، وإذا خَشيَ أن يوصَم بالكذب، وقد غَدَر المشركون بالمُسْلِمين في عِدَّة حوادثَ، وغدر بعضُهم بعضًا، فلو علِم المُشْرِك أنَّه لا يُطَّلَع على كذبِهِ وكان له هوًى؛ لَم يؤدِّ الشَّهادة"[2].

نُكْتَةُ بناءِ جُمَلِ الصِّلَةِ على تقديمِ الضَّمير ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾:

في بناء جُمل الصِّلةِ على تقديم الضَّمير ﴿هُمْ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾، وقوله: ﴿هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾، وقوله: ﴿هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾، وقوله: ﴿هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾، وقوله: ﴿هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾، وقوله: ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ إشادَةٌ بالمؤمنينَ وبكلِّ فضيلةٍ مِن فضائلِهم على سبيلِ الاستقلالِ.

الإشـــــادَةُ بالمُؤْمنينَ وبكُلِّ خَـصْـلَـةٍ مِـن خِـصالِـهِـم على وجْهِ الاستقلالِ

مَعْنى ﴿عَلَىٰ﴾ في القَيْدِ ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ للاستعلاءِ

الـصَّـلاة مـعـراجٌ يَرْقى بالرّوح في مدارجِ الكَمال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 171.

المجازيِّ؛ فيوحي بِعلّو رُتْبَتِهم بصلاتهم، وأنَّ صلاتهمْ معراجٌ يَرقى بأرواحِهم في مَدارِجِ الكَمال، ويَسْمو بها في معارجِ الرِّضوان، وذلك في مُقابِلِ انحطاط الهَلَوع الجَزوع المَنوعِ.

دلالَةُ التَّعبير بالصَّلاة، ولطيفةُ تَقْديمها وإضافَتِها إليهم في ﴿صَلَاتِهِمْ﴾:

لِصَلاة المُسْلِمين سِماتٌ ومَظاهِرُ تخصُّها، وبها يُعْرَفونَ

الصَّلاة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ هي الصَّلاةُ المكتوبةُ[1]، والصَّلاة صِلَةٌ بين العبدِ وربِّه ﷻ، وهي العبادةُ الّتي تنهى عن الفحشاء والمنكَرِ، وهي العبادَةُ الّتي إنْ صَلُحَتْ صَلُحَ سائِرُ عَمَله، وإنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سائرُ عَمَله؛ لذلك بها بدَأ النَّظْمُ الكريم تعديدَ صفاتِ المؤمنين وبها ختَمَها.

وإضافَةُ الصَّلاة إلى ضميرِ المؤمنينَ إضافةُ اختصاصٍ وتشريف، فالصَّلاة بهذه الصّورة - مِن حيثُ التَّوجُّهُ إلى القِبْلَة، والانقطاع عن الدُّنيا، والامتناع عنِ الأكلِ والشُّرب والكلام والالتفات وكثرةِ الحركاتِ - سِمَةٌ تتَّسم بها صلاة المسلمين، وبها صارت صلاتُهُم علامَةً تميِّزُهم بين الأمم.

وكذلك إضافةُ الصَّلاة إلى ضمير المُصَلّين في قوله تعالى: ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ - في آخر ذِكر الصِّفات - تنويهٌ بفضائل المُصَلّين بعد تنويهٍ، وتشريفٌ لهم بعد تشريفٍ، وإشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاة صارت سمتًا لهم، ورمزًا تُعْرَف بهم ويُعْرَفون بها، وتختَصُّ بهم، ويَخْتَصّون بها، فلا يشاركهم في المحافظة عليها غيرُهم.

دلالَةُ التَّعبير بالدَّيمومَةِ في قوله: ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾:

دوام المؤمنين على الصَّلاة كمًّا وكيفا؛ أهَّلَهم لثناءِ الله تعالى عَلَيْهِم

في الإخبارِ عَنِ المُؤْمِنين في جُمْلَة الصِّلة - ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ - بالدَّيمومَةِ على الصَّلاة إشادةٌ بثباتهم على صِلتِهم بالخالقِ العظيم ﷻ، وثباتهم على المبادئِ السّامية بطريق اللّزوم؛

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 268.

فإنَّ الصَّلاة المتكرِّرة في اليوم واللَّيلة فروضًا ونوافلَ تحرسُ صاحبَها من الاختلال العقديِّ والأخلاقيِّ.

وقد تعدَّدت آراءُ العلماءِ في المقصودِ بفعْلِ الدّوام في الخبر ﴿دَآئِمُونَ﴾، ولكلٍّ منها معتبَرٌ في الشَّريعة، ومن ذلك: أنَّ قوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي: "مقيمونَ، لا يُضَيِّعون منها شيئًا"[1]، كما قال ﷺ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النّور: 37]، و"فيه إشارة إلى فضلِ المُداومة على العبادةِ"[2].

ومن ذلك: أنَّ قوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي: "إذا صلَّوا لم يَلْتَفِتوا خلفَهم، ولا عن أيمانِهم، ولا عن شمائِلِهم"[3].

ومن ذلك: أن قوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ يعني: المحافظَةَ على القَدْرِ المُعْتاد مِن الصَّلاة، فعن رسولَ اللّهِ ﷺ قال: "خُذوا من العملِ ما تُطيقون؛ فإنّ اللّهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلّوا". قالت عائشة: وكان أحبَّ الأعمالِ إلى رسول اللّه ﷺ ما دووِمَ عليه[4].

ومِن ذلك: أنَّ قوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي: أنَّهم يقيمونها في أوقاتها، ويحافظون عليها دون أن يكون دوامُهُم فيها أبدا؛ لقوله ﷺ أنَّه قال: "أحبُّ الأعمال إلى اللّه أدومها وإن قلَّ"[5]، وأراد بقوله: "أدومها": لزومَها في الوقت الّذي أوجبوا فِعْلَ ذلك على أنفُسِهم، لا أن يكونوا أبدًا فيها؛ لأنَّهم إذا بقَوا فيها أبدًا؛ كَثُرَ ذلكَ منهم، فلا يكون لقوله: "وإن قلَّ" معنًى، فثبت أنَّ معنى الدَّوام ما تقدَّمَ.

وجائز أن يكون المراد من المُداومة هو أن يدومَ على الأحوال التي تليقُ بالصَّلاة عند كونه فيها من الإقبالِ على المناجاة، وتركِ الالتفاتِ، وتفريغِ القلب عن الأشغال والوساوس[6]. فتُشْعِرُ الآية بذَمِّ الالتفات في الصَّلاة، وقد نطقت الأخبارُ بذلك[7].

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 267.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 70.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 269.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 269، والحديث رواه البخاري في صحيحه، برقم: (6464)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2818).
(5) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (43)، ومسلم في صحيحه، برقم: (782).
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 206.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 71.

ومن ذلك: أنَّ قوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ يعني: "أنَّهم يحافظون على مواقيتِ الفَرْضِ منها، ويُكْثِرون فعلَ التَّطوّع منها"[1].

دلالَةُ التَّعبير بالخبَرِ اسمًا في جملة الصِّلة ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾:

عُبِّر بالخبر اسمًا في جملة الصِّلة ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ دون (يَدومون) "لقَصْدِ إفادَتِها الثَّباتَ؛ تقويةً كَمُفادِ الدّوام"[2] مادَّةً لغويَّةً؛ أي: أنَّ دلالة المادَّة اللُّغويَّة لاسم الفاعل ﴿دَآئِمُونَ﴾ - وهي الدّوام - تتَّسق معها وتَدْعَمُها الصّيغة الصَّرفيَّة - وهي صيغةُ فاعِلٍ -، فتَرْتَقي درجةُ البلاغةِ في التَّركيب؛ إذْ إنَّهُما يَتآزران على تقريرِ المَعْنى المَقْصود، وتحقيقِ الغرضِ المَنْشودِ.

التقاءُ دلالةِ الصّيغة الصّرفية ودلالةِ المادَّة اللُّغويَّة دعمًا للغَرَضِ، ورفعًا لدرَجَةِ البلاغَةِ

تَوْجيهُ المُتشابِهِ في آيتَي الصَّلاة ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾:

أجاب الزَّمخشريُّ عَن وجهِ التَّشابه الواقع في آيتَي الصَّلاة في هذا السّياق: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فقال: "معنى دوامِهم عليها أنْ يواظبوا على أدائها، لا يُخِلّون بها ولا يشتغلون عنها بشيءٍ مِنَ الشَّواغل، كما رويَ عن النَّبيِّ ﷺ: "أفضل العمل أدومه وإن قلّ"، وقول عائشةَ: "كان عملُه ديمةً". ومُحافظتهم عليها: أن يُراعوا إسباغَ الوُضوء لها ومواقيتَها ويُقيموا أركانَها ويُكْمِلوها بسُنَنها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقْتِراف المآثم، فالدّوام يرجِعُ إلى أنفُسِ الصَّلوات، والمحافظةُ إلى أحوالِها"[3].

المتشابِهُ القُرآنيُّ يوفّي المَقاماتِ حقَّها، ويُحَقِّق تكاملَ المَعاني

دلالَةُ تَقْديمِ الصَّلاة على الزَّكاة:

في تقديمِ الصَّلاة على الزَّكاة "إشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاة هي الّتي تَخْلُق في الإنسان العواطفَ والمشاعرَ التي تدعو إلى الرَّحمة،

الصَّلاة والزَّكاة علاجٌ لِما في جِبِلّة الإنسانِ مِنَ الهَلَع والجُبْن

(1) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 95.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 612.

والعطفِ، والإحسانِ، فالزَّكاة ثمرَةٌ مِن ثمراتِ الصَّلاة، والثَّمرة فرعٌ مِن أصلٍ؛ هو الشَّجرة"[1].

وفائِدَةُ إقامَةِ هَذينِ الرُّكنين أنَّ الصَّلاة والزَّكاة علاجٌ لِما في جِبلَّة الإنسانِ مِنَ الهَلَع والجُبْن الحاجِم لَهُ عَن الإقدامِ في الدِّفاع عن الحقِّ وإعلاء كلمةِ الله، ومِنَ الشّحّ الصّادِّ له عنِ الإنفاقِ في سبيلِ الله، ولذلك كانَ المُنافِقون أجبنَ النّاس وأبْخَلَهُم[2].

معنى (الواو):

(الواوات) بين الجُمَلِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ إلى آخره عاطفةٌ لتِلْكَ الأوصافِ جامعَةٌ لِشمائلِ المصلّين، مشيدةٌ باجْتِماع تلك الأخلاقِ فيهِم.

المؤمنون في كلِّ صلاتِهم على المُسْتَوى الأسْمى، ممّا يُحَقِّق لَهُم السُموَّ النَّفْسيّ

والعطفُ بالواوِ مُؤذِنٌ بتَغايُر مَضامينِ مَعْطوفاتها، مِن حيثُ صلةُ المؤمنين بربِّهم سبحانه، وصلتهُم بمُجْتَمَعِهم، وصلتُهم بأنفُسِهم، وأنَّهم في كلِّ ذلك على المُسْتَوى الأسمى، ممّا يحقِّق لهم السّموّ النَّفسيّ، ويَجْعَلهم مباركين في أنفُسِهم، مباركينَ في مُجْتَمعِهم، مؤهَّلين لدار السَّلام وهي الجنَّةُ.

وفي (الواو) الأولى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ "إشارةٌ إلى أنَّهما من باب واحدٍ، في باب الإيمان والإحسان"[3].

نكتَةُ تَقْديمِ القيود ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ و﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

قُدِّمت القيودُ في جُمَل الصِّلة: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ و﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ إلى آخره؛ تنويهًا بتلك القيودِ والمُتَعَلّقات في مواضعِها، وتنبيهًا إلى أهمّيّتها في حياةِ المُصَلّين، وبيانًا لدورِها في تكميل جوانبِ الإسلام، وتتميمِ شرائط الإيمانِ.

التَّنبيه إلى أهمّيَّة القيودِ في حياةِ المُصَلّين

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1178.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/ 468.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1178.

بل إنَّ القيودَ هي مناطُ الفائدة في سياقاتِها، كما قرَّره عبدُ القاهِر حيثُ يقول: "ما مِنْ كلامٍ كانَ فيه أمرٌ زائدٌ على مجرَّدِ إثباتِ المعنى للشَّيء؛ إلّا كان الغرضَ الخاصَّ من الكلام، والّذي يُقْصَد إليه ويزْجى القولُ فيه"[1].

وتلك العبارة فذّة في بابها؛ إذ لا مفهومَ للعِبارة: (والّذين هم دائمون) دونَ قيدِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾، ولا معنى للعبارةِ: (والّذين حقٌّ معلوم) دون المُتَعَلّق ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، وهكذا.

فإذا أُضيفَ إلى عطاءِ تلك القُيود عطاءُ تقديمِها على متعلَّقاتها برع الأسلوبُ، وتجلّت المقاصدُ الشَّرعيَّة من خلال اللَّطائف البلاغيَّة، فسبحانَ مَن هَذا كلامُه!.

لطيفةُ تَرْتيبِ صِفات ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾:

فضائلُ المُسْلِمين تتوالَدُ وشمائلُهم تتعدّد في اتِّساقٍ يجعلهم متفرِّدين بين أُمَمِ الأرض

جاء ترتيبُ صفاتِ المؤمنين في الأسماء الموصولة وصلاتِها مُتَوالدًا بعضُها من بعض، مراعيًا رُتبةَ كُلٍّ منها في ضَبْطِ حياةِ المصلّين، فرُتبة الصَّلاة مقدَّمة، وأهمّيَّتُها في بناء عقيدة المُصَلّين معلومةٌ، وكذا في تنقيح أخلاقِهم، وبها يجودُ المُسْلِمُ بالزَّكاة راضيةً بها نفسُه فيتعدّى خيرُه إلى غيرِه.

وهنا تأتي رُتبةُ الزَّكاة، وأثرُها يتمثَّل في تطهير مالِ المسلم المزكّي من جهةٍ، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103]، وفي إصلاح أحوال الفقراء والمستحقّين من جهةٍ أخرى. وهكذا تتسلسَلُ الفضائلُ وتتوالد الشَّمائل في تكامُلٍ واتِّساقٍ يَجْعَلُ المصلّين متفرِّدين بين أُمَمِ الأرض.

دلالة التَّعبير بالحَقّ، ونُكْتَةُ تنكيرِه في قوله: ﴿حَقٌّ﴾:

في التَّعبير بلفظِ ﴿حَقٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 280.

دلالةٌ على وجوبِه، وأنَّه يَلْزَمُهُم إخراجهُ[1]، ويَرَوْنَه حقًّا لا يترخّصون في اقْتِطاعِه مِن أموالهم لصالح الفُقَراء والمُحْتاجينَ، وبذلك تتحقَّق تزكيةُ النُّفوس، ويُطرد عنها الجشَعُ والشُّحّ.

المؤمنون يجعلون الفقراءَ بمنزلةِ الشُّركاء في أموالِهِمْ شفقَةً وحنانًا، فيخصِّصون لهم مِنْها حقًّا

وفي "تسمية ما يُعْطونه من أموالهم من الصّدقات باسم ﴿حَقٌّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم جعلوا السّائل والمحرومَ كالشُّركاء لهم في أموالهم مِن فَرْطِ رَغْبَتِهم في مواساةِ إخْوانِهِم؛ إذْ لَم تكُن الصَّدقَةُ يومئذٍ واجبَةً، ولم تكُن الزَّكاة قد فُرِضَت"[2].

و"يدخل في هذا الحقِّ المعلومِ دُخولًا أوَّليًّا ما فرضَهُ سُبْحانَهُ عليهِم مِن زكاةِ أموالِهِم. قالوا: ولا يمنع ذلك من أن تكون السّورة مكّيَّة، فقد يكون أصلُ مشروعيَّة الزَّكاة بمكَّة، ثُمّ أتى تفصيلُ أحكامِها بالمدينةِ عَن طريق السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة"[3].

و"هذه الصِّفَةُ للمُؤْمِنين مضادَّةٌ لِصفة الكافرين المتقدِّمة في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾"[4].

نكتةُ تقييد ﴿حَقٌّ﴾ بالوصفِ ﴿مَّعْلُومٌ﴾:

في مال المُسْلِم حقّان الزَّكاة المفروضة، وصدقةٌ يوظِّفُها على نفسِه للمحتاجينَ

في تقييد الحقِّ بالوصف - ﴿مَّعْلُومٌ﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ تقريرٌ للزَّكاة المفروضة في مالِ القادرين من المُصَلّين؛ وذلك "لوصفِهِ بكونِه معلومًا، ولجَعْلِه قرينًا للصَّلاة"[5]؛ أي: أنَّهُ "حقٌّ مُؤَقَّتٌ هو الزَّكاةُ، أو حقٌّ سِوى الزَّكاةِ"[6]. ويؤكِّدُ هذا المعنى ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذّاريات: 19]؛ حيثُ ورد بلا قيدِ الوَصْفِ ﴿مَّعْلُومٌ﴾؛ فكان حقّا آخرَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 101.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 350.
(6) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 269.

غير الزَّكاة المفروضة، وهذا الحقُّ "صدقةٌ يوَظِّفها الرَّجل على نفسهِ يُؤَدّيها في أوقاتٍ معلومةٍ"[1].

ومِن بديع معاني الوصفِ بِـ ﴿مَّعْلُومٌ﴾ "أنَّه يَعلمه كلُّ واحدٍ منهم ويحسبونَهُ، ويَعْلَمُه السّائل والمحروم بما اعْتادَ مِنْهُم"[2].

دلالَةُ التَّعبير بجُمْلةِ الصِّلَةِ: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ اسميّةً:

في صَوْغِ جُملة الصِّلة ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ اسميَّةً إشارةٌ إلى ثباتِ المؤمنينَ على هذا النَّهْج، والتزامِهم به على الدّوام وعدم تذبذُبهم فيه؛ كنايةً عَن قوَّة الإيمان وصدق اليقين. وليُفيد "ثباتَ هذهِ الخَصْلة فيهم، وتمكُّنها منهم؛ دفعًا لتَوَهُّم الشُّحّ في بعض الأحيانِ؛ لِما هو معروفٌ بينَ غالبِ النّاس مِن معاودَةِ الشُّحِّ للنُّفوس"[3].

خصالُ الخير ثابتةٌ للمؤمنين ملازِمَةٌ لَهُم، لا تُعاوِدُهُم أضدادُها

دلالةُ تَخْصيصِ الحقِّ المعلومِ بالسّائِلِ والمَحْرومِ:

في تخصيص الحقِّ المعلوم بالسّائل والمحروم - مع أنَّه حقٌّ لثمانيةِ أصنافٍ مِن المُحْتاجينَ المَذْكورينَ في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التوبة: 60] - رمزيَّةٌ لِصِنفَي المحتاجين، فالسّائل رمزٌ لمَن يعالج مذلّة السُّؤال، ويَتَحَمَّل إهراقَ ماءِ وجهه، والمحرومُ رمزٌ لمن يتعَفَّف على الرُّغم مِنْ حاجَته، فجمعتهم الآيةُ الكريمة جميعًا في قوله تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

السّائل رمزٌ لمَن يعالِجُ مذلّة السُّؤال، والمحروم رمزٌ للمتعفِّفِ مع حاجتِهِ

و"الفقراءُ ثلاثةٌ: السّائل الّذي يَطوف ويسألُ النّاس، والمعترُّ الّذي يعترُّ النّاس، ويُظْهِر حاجتَه للنّاس، ويتعرَّض للسُّؤال ولا يسأل صريحًا، والمحرومُ الّذي يَسْتُر فقرَهُ وحاجتَه عن النّاس؛ لا يسألهم ولا يعترُّ لذلك"[4]، والسّائل يُمَثِّل النّوع الأوَّل، والمحرومُ يمثّل الآخَرَيْن.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 613.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 380.

معنى (أل) في (السّائل):

السّائل هو "الفقير الّذي يتكَفَّف فَيُعْطى"[1]، والمُسْتَجدي[2]. و(أل) في (السّائل) جنسيَّة تفيدُ الاستغراق؛ تَدُلُّ على أنَّ كلَّ سائلٍ يسألُ المُصَلّين يُعطونَهُ، ولا يَمْنَعونَه؛ كما روي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: "لِلسّائِلِ حَقٌّ وإنْ جاءَ عَلَى فَرَسٍ"[3]. وليس من أخلاق المُصَلّين رَدُّ السّائل ما دام المَسْؤول يَمْلِكُ العَطاء.

المُحْسِنون يُعْطونَ كُلَّ سائل يسألُهُم بِغَضِّ النَّظَر عَن حالِهِ

و(أل) في (السّائل) يحتَمِلُ أن تكون عهديَّةً تُلمح إلى نوعٍ معيَّن من السّائلين؛ وهم السّائلون المحتاجون لا المتزيِّدون المستكثرون، ممَّن يتَّخذ المسألةَ حِرْفَةً، وقد حذّرهم الرَّسول ﷺ من مغبّة المسألةِ، فقال: "ما يَزالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النّاسَ، حَتَّى يَأْتيَ يَوْمَ القيامَةِ لَيْسَ في وجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ"[4].

دلالَةُ صَوْغِ (سائل) على اسْمِ الفاعل:

في صوغ لفظ (سائل) اسمَ فاعلٍ كنايَةٌ عَن كرَم أخلاقِ المُصَلّين المَسْؤولين؛ لِما في اسميَّةِ "السّائل" من دوامِ سُؤالِهِ وتَكْراره، بَل وحرصه عليهِ حَتّى يصيرَ السُّؤال دَيْدَنًا له معروفًا به، ومع ذلك لا يتضجَّر المسؤولُ من المُؤمنين أهل الصّلاة، بل يَظلّ يَهَشّ له ويبشّ، ويعطيه ما دام قادرًا على العطاء.

المُصَلّون لا يتَضَجَّرون مِن دوامِ سُؤال السّائلين، بَل يَرُدّون السّائل بالحُسْنى

وفي ذلك المنهجِ بيان خطأ مَن يَصُدّون النّاسَ عن العطاء بِحُجَّة أنّ المسألة صارت مِهنةً يَمتهنها السّائلون، بل عليهم أنْ يَرُدّوهم بالّتي هي أحسَنُ، كما قال الله تعالى: ﴿*قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: 263].

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 746.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.
(3) رواه أبو داود في سننه، برقم: (1665)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته، برقم: (4746).
(4) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (1474)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1040).

معنى (الواو) في قوله ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾:

المصلّون ينوّعون جهاتِ العطاء، ويُعَدِّدون أفرادَ المعطَيْنَ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿حَقٌّ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ واو العطفِ، المفيدَةُ للمغايرةِ بينَ السّائل والمحروم، الجامعةُ بينَهُما في عطيَّة المؤمنين المُصَلّين.

وفي ذلك إشارةٌ إلى تنويعِ المُعطَيْن، وألّا يَقف المعطي عطيّتَهُ على أحدٍ بعينِه، بل يُنَوِّع جهاتِ العطاء، ويُعَدّد أفرادَ المعطَيْنَ.

وذلك يُربّي سماحة النَّفس، ويُرَسّخ فيها معانيَ الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾ [البقرة: 265].

معنى (أل) في (المحروم):

كلُّ محروم أهلٌ للعطاءِ

المحروم هو الّذي يتعفَّف فلا يسألُ النّاسَ، فيُحرَم[1]، و"يحسبُهُ النّاسُ غنيًّا فيُحرَم الصّدقة"[2]. و(أل) في (المحروم) جنسيَّة استغراقيَّة؛ أي: أنّ المصلّين يُعطونَ الحقَّ الّذي فرضَهُ الله تعالى، أو الّذي اقْتَطعوهُ من أموالِهم بمَحْضِ إرادَتِهم لأيِّ محروم يُصادفهم، ولا يخُصّون به محرومًا معيَّنًا، بلّ كلُّ محروم من جنس المحرومين أهلٌ لأن يُعطَى، فهذا سببٌ من أسبابِ الثَّناء عليهم.

وفي الحديث الشَّريف أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "قالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَها في يَدِ سارِقٍ، فَأَصْبَحوا يَتَحَدَّثونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سارِقٍ، فَقالَ: اللهمَّ لَكَ الحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَها في يَدَيْ زانيَةٍ، فَأَصْبَحوا يَتَحَدَّثونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زانيَةٍ، فَقالَ: اللهمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى زانيَةٍ؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ. فَوَضَعَها في يَدَيْ غَنيٍّ،

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 746.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.

فَأَصْبَحوا يَتَحَدَّثونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنيٍّ، فَقالَ: اللهمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى سارِقٍ، وعَلَى زانيَةٍ، وعَلَى غَنيٍّ، فَأُتيَ: فَقيلَ لَهُ: أمّا صَدَقَتُكَ عَلَى سارِقٍ: فَلَعَلَّهُ أنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وأمّا الزّانيَةُ: فَلَعَلَّها أنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِناها، وأمّا الغَنيُّ: فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ، فَيُنْفِقُ مِمّا أعْطاهُ اللّه"[1].

دلالَةُ صَوْغِ (المحروم) اسمَ مفعولٍ:

فاعِليَّةُ السّائل ومفعوليَّةُ المَحروم

خولِفت صيغة (فاعل) في (السّائل) إلى صيغة (مفعول) في (المحروم) هنا للتَّنبيه في الأوّل إلى خَصيصة الفاعِليَّة؛ حيث هو السّائلُ الواقعَةُ منه المسألَةُ، والتَّنبيهِ في الثّاني على خَصيصة المفعوليَّة؛ حيث هو المحرومُ الواقِع عليه الحرمان، فلِكُلٍّ وصفٍ منهما إشاراتُه.

بلاغَةُ الاستعارةِ في لَفْظِ (المحروم):

المحرومُ مِنَ المواضع التي يُحِبُّ اللهُ تعالى وضْعَ الصَّدقةِ فيه

إطلاقُ اسمِ المحروم ليسَ حقيقةً؛ لأنَّه لم يسألِ النّاس فَيَحْرِموهُ، ولكن لمّا كان مآل أمرِه إلى ما يؤول إليه أمرُ المحروم؛ أُطْلِق عليه لفظُهُ تشبيهًا بِهِ في أنَّه لا تصل إليه ممكناتُ الرّزق بعد قُربها منه؛ فكأنَّه نالَهُ حِرْمانٌ.

والمقصود من هذه الاستعارةِ ترقيقُ النُّفوس له، وعطفُها عليه، وحثُّ النّاس على تحرّيه ليضعوا صدقاتِهم في موضعٍ يُحبُّ اللّه تعالى وضعَها فيه.

نكتةُ تقديمِ (السّائل) على (المحروم):

للسّائل أوْلَويَّةٌ في العَطاء؛ للضَّرورة التي ألْجَأتْهُ لِذُلِّ المسألَةِ

في تقديمِ (السّائل) على (المحروم) تنبيهٌ إلى صاحب الأولويَّة في العطاء؛ حيثُ لا يُقبِل على السُّؤال ويتجرعُ ذلَّ المسألةِ غالبًا إلّا محتاجٌ، مضطَرٌّ إلى أكلٍ أو علاجٍ أو غيرهما من ضروريّات الحياة. فالسُّؤال يَكسر النَّفس، ويُريق ماءَ الوجه. ويُفْتَرَضُ في كلِّ مَن

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (1421).

يَسأل أن يكون مُضْطَرًّا للسُّؤال، ويَنْبَغي على المَسْؤولِ المُبادرَةُ بحفظِ كرامَةِ السّائل، وتخليصِه مِن أزْمَتِه، أمّا المحرومُ؛ فقد لا يكون محتاجًا وقتَ العطاءِ وإن كان فقيرًا محرومًا على الدّوام.

بلاغةُ الجَمْعِ بين ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ و﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ في السّياق:

بَـــذْلُ المُـؤْمِـن وبُخْلُ الكافِر

في الجَمْعِ بين قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾، وقولِه تَعالى هنالك في صِفات السّائل بعذابٍ واقع: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ تتجلّى الهوّةُ الشّاسعة بين أخلاقٍ وأخلاقٍ، وعقيدَةٍ وعقيدةٍ، ممّا يترَتَّب عليه شساعَةُ الهوّة بينَ نتيجَتَيْهما ومآلِهما: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾ وبين ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾؛ ومِن شأن ذلك إثارةُ الرَّهبة مِن جهنَّم في نفس الشَّقيّ، وإثارة التَّوْق إلى الجنان في نفسِ المؤمن الصَّفيّ.

دلالَةُ التَّعبير بالتّصديقِ في قوله: ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ولطيفة المُضارَعَة فيهِ:

أعـمـالُ العَبْدِ الـصّـالـحَـةُ وتجدُّدها دليلُ صِدق إيمانِه

في التَّعبير بالتَّصديق في قول الله تعالى: ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إلماحٌ إلى صِدْقهم في إيمانِهم، وصِدْقِ إيمانهم بالبَعْث وما وراءه من حسابٍ وجنَّة ونارٍ، وأنَّهم "لا يشُكّون فيه ولا يَجْحَدونَه"[1]، و"هذا الوصف مقابِل وصفِ الكافرين بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾"[2].

وفي التَّعبير بالتَّصديق كذلك دلالةٌ على أنَّهم كما يُصَدِّقون بيوم الدّين تصديقًا قلبيًّا وقوليًّا؛ كذلك يُصَدِّقون به تصديقًا عَمَليًّا "بأعمالهم؛ حيث يُتْعِبون أنفسَهم في الطّاعات البدنيَّة والماليَّة طمعًا في المثوبة الأخرويَّة، بحيث يُسْتَدَلُّ بذلك على تصديقهم بيومِ الجزاء"[3]. ويدعَم أنَّ المقصودَ هو التَّصديق بالأعمالِ: "أنَّ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 350.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 33.

التَّصديق القلبيَّ عامٌّ لجميع المسلمين، لا امتيازَ فيهِ لأحَدٍ مِنْهُمْ"[1] إلّا في درجاتِ اليقينِ بِهِ.

ومِن اللّافت في جملةِ الصِّلة العدولُ إلى التَّعبير بالفعليَّة ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ دون الاطِّراد على الاسميَّة كالسّوابق عليها واللّواحق بِها؛ وذلك لأنَّ المضارَعَةَ تُفيدُ بأنَّ تصديقَهُم بيوم الدّين يتَصاعَدُ كُلَّما رأوا الآياتِ وتَدَبَّروا المَلَكوتَ، وأنَّ تصديقَهُم بيومِ الدّين يتجدَّد وينمو يومًا بعد يوم.

و"في التَّعبير بالمُضارع ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّ تَصْديقَهُم بالأعمالِ يتجَدَّدُ مِنْهُم آنًا فآنا[2] تجدُّدًا مستمرًّا لا فتورَ فيه ولا كلَل ولا ملل.

وتقييدُ التَّصديق بـ (يوم الدّين) ضرورةٌ في استقامةِ العَبْدِ، إذ "لو أُخْلي الإيمانُ باللّه تعالى مِن الإيمان باليوم الآخر؛ لكان الإيمانُ باللّه سُبْحانه - إن وُجِد - مجرَّد فكرة ذهنيَّة، لا يكاد يكونُ لها أثرٌ في سلوك الإنسان، ولا حساب فيما يأتي وما يذَرُ مِن الأعمال"[3]، على أنَّ "التَّصديق بيوم الدّينِ؛ يَلْزَم منه التَّصديق بالرُّسل عليهم السلام، وبما جاءوا به مِنَ الكتُبِ"[4].

دلالَةُ التَّعبير بـ (يوم الدّين) دون ما سِواهُ مِن أسماءِ يومِ القيامَةِ:

"سمّيَ يومُ القيامةِ: يومَ الدّين؛ لأنّه يوم الدّينونة، ويوم الحساب؛ حيث يُدان الإنسانُ، ويُجازى بما عمِل. وأصلهُ من الدَّين؛ لأنَّ للّه ﷻ دَيْنًا على كُلِّ مخلوق بِخَلْقه من عدَمٍ، ثُمَّ بما أودع فيه مِن قوًى، ثُمَّ بما أفاء عليه مِنْ فَضْلِه وإحسانه.

للّه تعالى دَيْنٌ على العبادِ، فمَهْما اجتهدوا لا يوَفّونه سبحانه حقَّهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 71.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 71.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1178.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 887.

ولهذا كانَ كُلُّ موجودٍ مسبِّحًا بحَمْدِ اللّه تعالى قضاءً لِبعض هذا الدَّيْن، وقد وفّى كلُّ مخلوقٍ دَيْنَهُ لِخالقه؛ إذ لم يَنْحَرِف عن الطَّريق الّذي أقامه اللّه ﷻ عليه، ما عدا الإنسانَ؛ فإنَّ أيَّ إنسانٍ مهما اجتهدَ في طاعة اللّه، وتحرّى مواقعَ مرضاتِه، فإنَّه لا يسلم أبدا من عوارِضِ التَّقصير؛ ولهذا كان النّاس جميعا واقِعين تحت الدّينونة"[1].

نكتَةُ تقديمِ المُتعلّق ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ على الخبرِ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾:

خـوفُ المُـؤْمِـن الـصّـادق إنَّـما يـكـون مِـن الله تعالى وحدَهُ

في تقديم قوله: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ على الخبَرِ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ عذاب ربِّهم عندهم مِنَ الحذَرِ بمَوْضِعِ التَّقديم، ومَكْمَنِ الرَّهبة الأوّل؛ إذِ المُؤْمِن لا يَخْشى إلّا ربَّه تعالى. ففي هذا التَّقديم قصرُ إشْفاقِهم على كونِه ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ قصرًا حقيقيًّا ادّعائيًّا، حتّى كأنَّهم لا يُشفقون إلّا من ذلكَ.

دلالة التعبير بالربوبية وإضافة العذاب إلى لفظ الربوبية:

اسـتـقـبـالُ عـطـاءِ الـكـريـمِ بالجُحودِ؛ مِنْ موجباتِ انتقامِهِ

مِنَ اللّافت في نَظْمِ هذا القيدِ ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ إضافةُ العذاب إلى اسمِ (الرَّبّ) ﷻ، ومِنَ المعلوم أنَّ وصف الرَّبِّ سبحانه يتعلّق بالعطاء والرَّحمة، فأفادَ أنَّ الإخبار هنا هوَ للإشفاق مِن غضَبِ الحليم وعقابِ الكريم.

دلالَةُ الإضافَةِ في قوله: ﴿رَبِّهِم﴾:

المـؤمـنـون يحتَمونَ برَبِّهم سُـبْـحـانَـه مِـن عذابه، ويفرّون منهُ إليهِ

إضافَةُ اسمِ الرَّبِّ ﷻ إلى ضميرِ المُؤْمنين في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ تُشْعِر باحْتِمائِهم بـ ﴿رَبِّهِم﴾ سُبْحانَهُ مِن عذابه، وذلك يتَّسق مع ما جاء في الدُّعاء النَّبويِّ في قوله ﷺ في الدُّعاء: "لا مَلْجَأ ولا منجا مِنْكَ إلّا إلَيْكَ"[2]، وغيرهما مِن نصوصِ الفِرار من عذابِ اللّه تعالى إلى رحمتِه ﷻ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1179.

(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (247)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2710).

دلالَةُ التَّعبير في جملةِ الصِّلة بالإشفاقِ، ونُكْتَةُ الرُّجوع فيه إلى الاسميّة ﴿مُّشْفِقُونَ﴾:

اتِّصافُ المُسْلِم بِدَوام إشفاقِهِ مِن عذابِ ربِّه تعالى ممدَحةٌ له

الإشفاق: تَوَقُّعٌ مع أخْذِ الحذَرِ منه[1]. ووصْفُ المُصَلّين بالإشفاقِ؛ يعني أنَّهم "خائفون على أنفسهم، مع مالَهُم مِنَ الأعمال الفاضلةِ اسْتِقْصارًا لَها، واستعظامًا لِجَنابه ﷻ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: 60]"[2].

وفي وصفهم بالإشفاقِ "إشارةٌ إلى أنّ الخشيةَ مِن عذاب اللّه تعالى هي القوَّةُ العاملةُ في توجيهِ الإنسان إلى الخير وتَجَنُّبِه للشَّرِّ، أكثر من الطَّمع في الجنَّة والرّغبة في نعيمها؛ فمِن طبيعة الإنسانِ أنَّه يحرِصُ على أن يَتَوَقّى الشَّرّ، ويعمل له حِسابًا، أكثر مِن حِرْصِه على تحصيلِ الخير والجدّ فيه. ومِن هُنا كان مِن المَبادِئ العامَّة في الشَّريعة الإسلاميَّة: أنّ دفْعَ المضارّ مقدَّمٌ على جلب المنافعِ"[3].

وجاء في ذلك أنَّ عائشةَ ﵂ سألت رسول اللّه ﷺ عن قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: 60]: أهم الّذين يشربون الخَمْرَ ويَسْرِقون؟ فقال: "لا يا بِنْتَ الصِّدّيقِ، ولَكِنَّهُمُ الَّذينَ يَصومونَ ويُصَلّونَ ويَتَصَدَّقونَ، وهُمْ يَخافونَ أنْ لا تُقْبَلَ مِنْهُمْ"[4].

وفي التَّعبير عن الإشفاقِ بالاسم ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ دلالةٌ على دَوامِهم على حالِ الإشفاق، وملازمتِهم تلك الصِّفةَ، فهُم يَجْعَلون عذابَ ربِّهم نُصْبَ أعيُنِهم في كلِّ ما يأتون وما يَذَرونَ، وبِمُقْتَضى الآيةِ يكونُ اتِّصافُ المُسْلِم بهذِهِ الصِّفة ممدَحةً لَهُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 173.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 33.

(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 15/ 1179.

(4) رواه الترمذي في جامعه، برقم: (3175)، وابن ماجه في سننه، برقم: (4198)، وهو حديث صحيح كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: 1/ 305.

و"وصْفُهم بأنَّهم ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ مُقابِلُ قوله في حقِّ الكافرين ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾؛ لأنَّ سُؤالَهُم سؤالُ مستخِفٍّ بذلك ومُحيلِه"[1].

بلاغةُ الكِنايَةِ في قولِهِ: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾:

المؤمِنُ الخائفُ مِن ربِّه صِدْقًا؛ يتَحاشى معصيَتَهُ ويعْمَلُ بطاعَتِه

في التَّعبير بالإشفاقِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ كنايَةٌ عن تَحاشي السُّقوط في الموبِقات، وملازمةِ العمَلِ بالطّاعات؛ إذِ الإشْفاق يَحْمِلُ على ذلك ويَسْتَلْزِمُه عندَ العُقلاء ذَوي الهِمَّةِ الصّادقةِ مِنَ المؤمنين، فهُم ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ "وَجِلون أن يُعَذِّبَهم في الآخرةِ؛ فهم مِن خشية ذلك لا يُضَيِّعون له فرضًا، ولا يَتَعَدَّوْنَ له حدًّا"[2].

دلالَةُ وصفِ المؤْمِنين بالإشفاقِ بإزاءِ اسْتِهْزاءِ الكافرينَ ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾:

المؤْمِنون خائِفون في الدُّنيا مع صلاحِ أعمالِهِم، والكُفّار آمِنون فيها معَ فَساد أفعالِهِم

فرقٌ بين حال المؤمنين المُشْفِقين من عذاب ربِّهم، على الرُّغم مِنْ أخذِهم بأسبابِ النَّجاة منه، بل وبأسبابِ الفَوْزِ برِضْوانِ اللّهِ تَعالى وجِنانه -، و"أنَّهم مع قوّة إيمانهم، وكثرة أعمالهم الصّالحة؛ لا يَجزِمون بنَجاتهم مِن عذابِ الله تعالى، وإنَّما أحوالُهم مبنيَّةٌ على الخوف والرَّجاء"[3].

فَرْقٌ بين حال أولئك الأبرار، وبين حال الكافرين، الّذين يسألون مستهزئين مكذِّبين: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾ [الذاريات: 12]، فالمؤمنون جادّون في طاعة اللّهِ تعالى، والاستعدادِ ليوم الدّين، بخلاف الكفّار فهُمْ هازلون مستهزئونَ بالشَّرائعِ، مُكَذّبون بالدّين، غيرُ مُبالين بوَعْدٍ ولا وعيدٍ.

عِلَّةُ فَصْلِ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ﴾، ونكتة اعتراضِها بين الصِّفات:

بيانُ علَّةِ إشفاق المؤمنين مِن عذابِ اللهِ تعالى

فُصلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ عمّا قبلهُ؛ لما بينهما من شبه كمال الاتِّصالِ، فالجملةُ الثّانية مستأنفةٌ استئنافًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 276.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 101.

بيانيًّا؛ حيث إنَّها جاءت جوابًا عن سؤال تثيرهُ الأولى فحواه: ولِمَ هم مِن عذاب ربِّهم مشفقون؟ فجاء الجوابُ وافيًا بحقِّ هذا السُّؤال المقدّر: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

وعلى ذلكَ؛ فجملة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ تعليليَّةٌ، ومقرِّرةٌ لمضمونِ ما قبلها؛ أي: إنَّهم مشفقون من عذاب ربِّهم؛ لأنَّ العاقلَ لا يأمَنُ عذابَه ﷻ مهما أتى من طاعاتٍ، وقدَّم من أعمالٍ صالحاتٍ[1].

وجملة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ جملةٌ استطراديَّةٌ واردةٌ على سبيلِ الاعتراضِ، وقد سيقت بين صفاتِ المؤمنين، بإثْرِ مناسِبٍ لها؛ هو قوله: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، ومن بلاغة ذلك الاعتراض مباركةُ منهجِ المصلّين في إشْفاقِهم مِن عذاب ربِّهم، والإيحاءُ بأنَّهُم يَفْقَهونَ الأمور على وجْهِها.

ومن نِكات هذا الاعتراض التَّنبيهُ إلى أنَّه "لا ينبغي لأحدٍ - وإنْ بالَغ في الطّاعة والاجتهاد - أنْ يَأمنَه، وينبغي أن يكون مترجِّحًا بين الخوف والرَّجاء"[2]؛ و"لذا كان السَّلف الصّالح - وهُم هُمْ - خائفين وجِلين، حتّى قال بعضُهم: يا ليتني كنتُ شجرة تُعضَدُ، وآخر: ليت أمّي لم تلدْني، إلى غير ذلك"[3]، وفي هذا الاعتراضِ كذلك "تعريضٌ بزَعْم المشركين الأمنَ منه؛ إذ قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشُّعراء: 138]"[4].

معنى ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾:

﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، تُقَرِّر صِدْقَ الخبَرِ بأنَّ عذاب ربِّهم ﷻ غيرُ مأمونٍ اللّحوق بأحدٍ، وأنَّ مقتضياتِ عذابِه ﷻ كثيرةٌ؛ ولذا فإنّ المصلّين مشفقونَ خائفونَ من عَدَمِ قبول أعمالهم الصّالحة؛ وذلك بسببِ

رُؤْيَـةُ المُؤْمِنين في أعـمـالِـهـم الـقُـصـورَ؛ أوْرَثَـهُـم الخَوْفَ مِن عدَمِ قَبولِها

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 101.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 613.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 71.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 173.

ما يرونَ فيها مِن قصورٍ وتَقْصيرٍ، مع ما قد يُداخل النّوايا مِن محبِطات الأعمال.

دلالَةُ الإخْبارِ بـ ﴿غَيْرُ﴾ في الخبر ﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾:

تحقُّق نزولِ العذابِ بالكُفّار

التَّعبير بـ ﴿غَيْرُ﴾ في الإخبار عن المُصَلّين بأنَّ ﴿عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ نَفْيٌ صريحٌ لأمْن نزولِ عذابِهِ ﷻ بهم، وفي ﴿غَيْرُ﴾ تعريضٌ بتحقُّقِ حلولِ عذاب الله تعالى على الكافرينَ؛ إذ التَّعبير بـ ﴿غَيْرُ﴾ يوجّه إلى ضدِّ المنفيِّ بها تعريضًا.

دلالَةُ نَفْيِ الأمن، ونُكْتةُ صوغِهِ اسمَ مفعولٍ في قوله: ﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾:

الشَّفقة من عذاب الله تعالى تَبْعَثُ على الحذرِ مِنَ المَعْصيَة والاجتهاد في الطّاعة

في النَّفي الصَّريح لأمن عذاب ربِّهم عن الحلولِ بهم إقرارٌ لهم على ما هُم عليه من الشَّفقة منه؛ فإنَّه حقًّا "ينالَ مَن عصاه وخالفَ أمرَه"[1]؛ وذلك مِن شأنِهِ بعثُهم على الحذرِ مِنَ المَعْصيَة، والاجتهاد في اكتسابِ الطّاعة.

وفي صوغ ﴿مَأْمُونٍ﴾ على زِنَةِ اسم المفعول في قوله: ﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ تنبيهٌ على أنَّ عذاب ربِّهم لا يَخضع لتعاليم أحدٍ إلّا الله تعالى، ولا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يستبعدَهُ، أو يأمنَهُ، فهو غير مأمون.

إشفاقُ المؤمنين مِن عذاب ربِّهم حقٌّ، وجُرأةُ الكافرين بنَفْيِه جُرمٌ كبيرٌ

وفي إشفاق المؤمنين من عذاب ربِّهم، وإقرارِهم على عدَمِ أمْنِهم إيّاه: إبطالٌ لمزاعم الكُفّار في قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: 138]، وتعريضٌ بجُرأتهم في القَطْعِ بالنَّجاة من العذاب، مع ما هُم عليه من ضلالٍ ومعصيَةٍ. وفيه إشادةٌ بمنهج المؤمنينَ مِن الإشفاق من عذابِ ربِّهم مع ما هم عليه من الهُدى والطّاعة.

و"هذا هو الحقُّ؛ ألّا يأمَنَ أحَدٌ مِن عذابه وإنْ دأبَ في عبادته واجتهَد في طاعته؛ لِما لا يدري على ماذا يُختَمُ أمرُه؟ أو يخافُ ألّا يُقْبَلَ منه ويُرَدّ عليه، أو يخافُ أن يكون قد قصّر عن شُكْر كثيرٍ من النِّعم، وغفَل عنها.

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان، جامع البيان: 23/ 276.

والأصل أنَّه ما مِن أحدٍ ينظُرُ في أمره وحاله إلّا وهو يرى على نفسه مِنَ الله تعالى نِعَمًا لو أجهَد نفسَهُ ليقوم بشُكْرِ واحدٍ منها؛ لقَصر عن ذلك، ولم يتهيّأ له القيام بوفائها، فمَن كان هذا وصفَه؛ فأنَّى يقع له الأمنُ مِن عذابه؟ ويوجدُ منه الوفاءُ بالأسباب الّتي يؤمن بها إلّا أن يكون من الخاسرين!"[1]؛ فإشفاق المؤمنين من عذاب ربِّهم حقٌّ، وجرأة الكافرين بنَفْيِه عنهم جُرم كبيرٌ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفزع والهلع:

الفَزَعُ: مفاجأةُ الخوفِ عند هجوم غارةٍ أو صوتِ هدَّةٍ وما أشبه ذلك؛ وهو انزعاجُ القَلْبِ بتوقُّع مكروه عاجِلٍ. أمّا الهلَعُ فهو أسوأُ الجَزَع. والهَلوعُ هو ما فسَّره الله تعالى في قوله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾، ولا يُسَمّى هلوعا حتّى تجتمِعَ فيه هذه الخصالُ[2].

الـفَـزَع انـزعـاج الـقـلـب بِـتَـوَقُّـعِ مـكـروهٍ عاجل، والـهَـلَـع أسـوأُ الجزَعِ

المَنْع والضَّنّ:

المَنْعُ: تحجيرُ الشَّيءِ، يُقال: مَنَعَه يَمْنَعُه منْعًا، ومنعهُ فامتنعَ وتمنَّع. ورجل منوعٌ: ضنينٌ، وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾، ومنيعٌ: لا يُخلص إليه، والاسمُ: المَنَعَةُ والمَنْعَةُ والمِنْعَةُ، ومَنُع الشَّيءُ مناعةً فهو منيع؛ اعتزّ وتعسَّر. والضَّنُّ: شدَّةُ البُخْلِ، أو البخلُ بالشَّيءِ النَّفيسِ، والمضنونُ به: الشَّيْء النَّفيس تَضِنُّ بِهِ لِمكانته مِنْك وموقعه عنْدك. والضَّنين: الشَّديدُ البُخْل أو البَخيل بالشَّيْء النفيس[3].

المَـنْـعُ التَّحجير مطلقا، والضَّنُّ شـدَّةُ البُخْلِ أو البخلُ بالنَّفيس

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 208.
(2) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 404.
(3) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ضنن).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"